الباب السادس

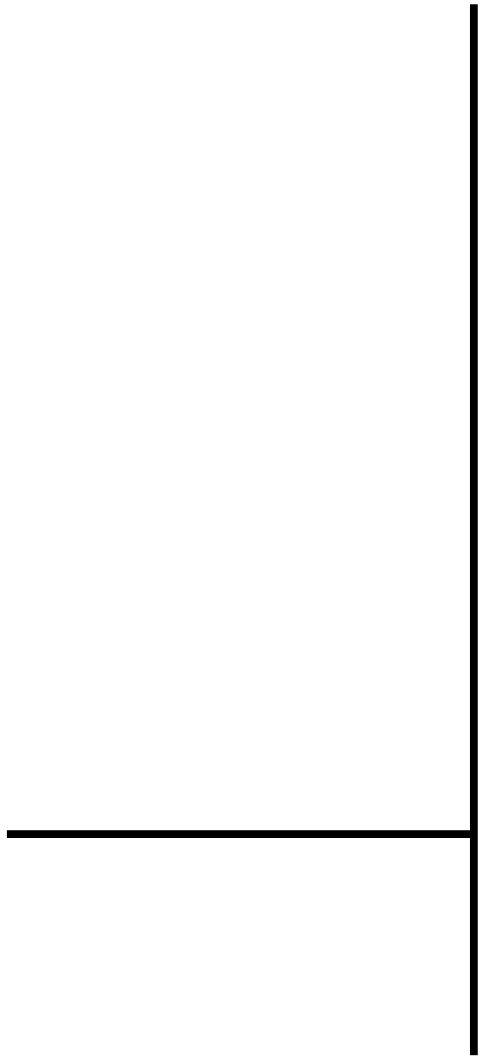

☆☆☆

مكانة العلماء ومكر السفهاء

ما يزال الناس بخير ما عَرَفوا لأكابرهم حقوقهم، فحفظوها ورَعَوْها، وآتوهم إيَّاها كاملةً ووفوها، وإنَّه وإن تعدَّدت حقوقُ الناس على بعضهم، واختلفتْ أهميتُها بحسب ما لأصحابها من الفَضْل والمِنَّة، فإنَّ للعلماء على المتعلِّمين خاصَّة، وعلى الأمَّة عامَّة أعظمَ الحقوق وأعلاها؛ إذ هم ورثةُ الأنبياء، وحَمَلة عِلمهم، والمبلِّغون عنهم ما نُزِّل إليهم من ربِّهم، بهم تقوم الحُجَّة، وتستبين المحجَّة، وعلى أيديهم تحيا السُّنن، وتُمات البدع، وعن طريقهم يصل إلى الناس عِلم الشريعة، فتُحفظ الأحكامُ، ويعمل بالآداب، وتُقام الحدودُ، وتصان الحقوق، ومِن ثَمَّ كان فضلهم على الناس كفضل النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم على أصحابه؛ قال عليه الصلاة والسلام : (فضلُ العالِمِ على العابد كفضلي على أدناكم)، ولقد أثنى الله على العلماء وامتدحهم،ورفع درجاتِهم، وأشهدهم على خير مشهود عليه، وشَهِد لهم بالخشية؛ قال سبحانه : (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) وقال جلَّ وعلا : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) وقال تعالى : (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ) .

قال صلَّى الله عليه وسلَّم : (إنَّ مِن إجلال الله إكرامَ ذي الشَّيْبة المسلِم، وحامل القرآن غير الغالي فيه، ولا الجافي عنه).

وإذا تجرَّأ القومُ على العلماء في مجالسهم، أو سَلَّطوا ألسنتَهم عليهم في منابرهم، أو شرعوا الأقلامَ لتنقُّصهم، وألَّبوا ضدَّهم في منتدياتهم، فاعلمْ أنَّ ذلك منهم فسوقٌ ظاهر، وعصيانٌ واضح؛ بل هو عين الغَوَاية، وسبيل الضلالة؛ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: (ليس منَّا مَن لم يُجِلَّ كبيرَنا، ويرحم صغيرَنا، ويعرف لعالِمنا حقَّه).

ولقد انتشرتْ في الآونة الأخيرة بدعة مُنكَرة، وطريقة ماكرة، حَمَل وزرَها أقزامُ الصحف، وأغيلمة الجرائد، أهل التهويش والتقميش، ومستمرؤا الغشِّ والتلبيس، فصار أسهلَ شيء على أحدهم أن يجري قلمه بأرخص الكلام للنيل من العلماء الأعلام، والوقيعة فيهم بالاتِّهام، واللهُ يعلم أنَّ هذه الطريقة اليهودية الماكرة، والصفقة الخاسرة، إنَّما هي خطة سوءٍ؛ للنَّيْل ممَّا يحمله أولئك العلماء مِن عِلم الشريعة، التي ضاقوا بها إذ حالتْ بينهم وبين ما يشتهون مِن الحرام، ومَنعتْهم من الولوغ في السيِّئات والآثام، فراحوا لذلك يبحثون عمَّا ينالون به منها ويميعونها؛ ليبعدوها مِن دُنياهم، ويُنحُّوها عن طريقهم، فلم يجدوا لذلك طريقًا إلاَّ إسقاط أهلها، وتنحية حامليها، والحيلولة بين الناس وبين الأخْذ عنهم.

ومِن شديد الأسف أن يتأثَّرَ رجالُ الأمَّة بهذا النعيق، وينساقوا مع ذلك الهُراء، فيسيئوا لعلمائهم، ولا يوفوهم ما لهم مِن الحق، ممَّا هو نذيرُ شؤم عليهم، ومُؤذِن بضلالهم وتفرُّقهم، إن لم يتداركْهم الله برحمته ولطفه، فما بعد الحقِّ إلاَّ الضلال، وما غيرُ الأخْذ برأي العلماء إلاَّ اتِّباع السُّفهاء، والسير في ركاب أهلِ الأهواء؛ قال سبحانه : (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) وقال تعالى : (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ .

وإذا عُورضتِ الفتاوى الرصينة، والمقالات المتينة، بشبهات شيطانيَّة، وزَلاَّت شهوانية، فإنَّ ذلك منتهى الضلال، وغاية الغواية؛ إذ هو قبْضُ العِلم، وموته بإماتة أهله؛ قال عليه الصلاة والسلام : (إنَّ الله لا يَقبضُ العِلمَ انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يَقبضُ العلمَ بقبْضِ العلماء، حتى إذا لم يُبق عالِماً اتَّخذ الناسُ رؤوساً جهَّالاً، فُسئِلوا فأفتوا بغير علمٍ، فضَلُّوا وأضلُّوا).

والعجبَ ليس من هؤلاء المنافقين، الذين أبَى الله إلاَّ أن يَفضحَهم على رؤوس الخَلْق، ويُظهر للناس سوءَ طويتهم، وما تُخفي صدورهم مِن كُرْهِ العِلم، وبُغْض أهله، ولكنَّ العجب ممَّن يسلم للجرائد قيادَه، ويعطيها

زمامَه؛ لتصوغ له عقلَه، وتُشكِّل فِكرَه من زبالات الآراء، وغثِّ المناهج، وتقوده إلى منحدرات الضلال، وتسوقه إلى منزلقات الغواية وإنَّها لحسرةٌ ما بعدها حسرة أن يقلب المرءُ ظهرَ المِجَنِّ لشريعة ربِّ العالمين، ويَزهد في سُنَّة سيِّد المرسلين، ثم يتبع أقواماً يحسب أنَّهم على شيء، وهم خاسرون، وإنَّ موعد المغيِّرين المبدِّلين حوضُ محمد صلَّى الله عليه وسلَّم القائل:(إنِّي فَرَطُكم على الحوض، مَن مرَّ عليَّ شَرِب، ومَن شَرِب لم يظمأ أبداً، لَيَردنَّ عليَّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفونني، ثم يُحال بيني وبينهم، فأقول: إنَّهم مني، فيقال: إنَّك لا تدري ما أحْدَثوا بعدَك، فأقول: سُحقًا سُحقًا لِمَن غيَّر بعدي).

مكانة العلماء وواقع الأمة

لقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأمة في توادها وتراحمها وتعاطفها بالجسد الواحد وهذا الجسد له رأس متى بقي هذا الرأس وبقيت الحياة فيه بقيت الحياة في هذا الجسد، هذا الرأس يمثله صنفان من الناس: الأمراء والعلماء، والله سبحانه وتعالى أمرنا في محكم كتابه بطاعة هذين الصنفين من الناس، فقال – سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وأولو الأمر فسره كبار علماء الصحابة كابن عباس وجابر وغيرهما من علماء التفسير من بعد علماء الصحابة فسروا أولى الأمر بالأمراء والعلماء، فالأمراء

لهم الكلمة النافذة على الرعية، ألزم الله عز وجل الناس طاعتهم، وطاعتهم من طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فبالاجتماع عليهم تجتمع المصالح، وبالاتفاق على طاعتهم تحفظ البلدان والأوطان، وتحرس الحرمات، وهذا الصنف أعني الأمراء والملوك يجب عليهم أن يطيعوا الصنف الآخر، يجب عليهم أن يطيعوا العلماء، لا لذوات العلماء وأشخاصهم ولكن لما يحمله العلماء من هدي النبوة، فإن العباد جميعًا الأمير والمأمور والوزير والموزور الصغير والكبير الجميع مأمور بطاعة الله تعالى: (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما).

الجميع مأمور بطاعة الله، وطاعة الله لا تُعلم ولا تُدرى إلا من خلال ما يقوله العلماء الذين كلفهم الله تعالى بحمل الرسالة وبلاغها إلى الناس، فوظيفة الأنبياء يخلفهم فيها هؤلاء العلماء، وقد قال عليه الصلاة والسلام : (وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر) فطاعة العلماء طاعة لله ولرسوله، ولهذا يجب على الناس جميعاً أن يطيعوهم، حتى الملوك يجب عليهم طاعة أهل العلم والنزول عند قرارهم وما يتفقون عليه؛ فإن الأمراء إنما يستمدون سلطانهم من سلطان الله، يستمدون الأمر بطاعتهم من طاعة الله، ولا تتحقق الطاعة لله إلا إذا امتُثِل شرعه وقام الناس بما أوجبه عليهم.

فللعلماء حقوق يجب على الأمة أن تقوم بها، وما ضَعُفَ العلماء وما قلت كلمتهم إلا حين تخلت الأمة عن القيام بهذه الحقوق (ويعرف لعالمنا حقه) هذا الحق ليس حقًا كهنوتياً، ليس طغياناً وظلماً وتجبراً؛ إنما كما فسره العلماء أنفسهم شراح الحديث قالوا: وحق العالم طاعته في طاعة الله، أن يطاع حين يأمر بطاعة الله، وأن يطاع حين ينهى عن معصية الله، فطاعته طاعة لله تعالى.

لقد عرفت هذه الأمة مكانة علمائها عبر تاريخها الطويل، فكان القادة الحقيقيون هم أهل العلم، أما في الصدر الأول أيام الخلافة الراشدة وما شاكلها من العصور فقد كان الأمران يجتمعان في شخص الحاكم، كان الحاكم هو الأمير وكان الحاكم هو العالم، هذه سيرة الخلفاء الراشدين كانوا علماء خلفاء، وجاء بعدهم أناس اتصفوا بهذه الصفات كعمر بن عبد العزيز رحمه الله ومن سار على شاكلته، ففي حقب كثيرة من تاريخ الإسلام كان يجتمع في شخص الحاكم الوصفان معاً الحكم والعلم، وفي حقب كثيرة من تاريخ الإسلام كان الحاكم عرياً عن العلم وفي هذه الحالة يلزمه أن ينزل عند رأي أهل العلم، وأن يتخذ بطانة صالحة من العلماء العاملين الربانيين الذين يبصرونه حين تشتبه الأمور، ويذكرونه حين تحتكم الغفلة، ويشجعونه حين يشتد في الناس الجبن والخور.

يجب على الناس طاعة أولى العلم، واستدل العلماء على هذا بكتاب الله وبسنة رسوله صلى الله وسلم قال سبحانه في سورة النحل وهو يوجه الخطأب للناس قال: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وأهل الذكر هم أهل العلم بالشريعة، استدل بهذه الآية ابن كثير ومن وافقه من علماء التفسير، على وجوب طاعة العلماء؛ لأنه ما دام أمَرَ الناس بأن يسألوهم ؛ فإنه بذلك أمَرَهُم بأن يطيعوهم فيما يجيبون، وإلا فما فائدة السؤال والجواب؟ .

فالعلماء هم الحكام الحقيقيون لهذه الأمة ليس بذواتهم ولكن بما ينطقون به من هدي النبوة بما يبلغونه للناس من أحكام الله تعالى، ومن ثم لزم الجميع أن يمتثل لكلامهم كما قال الشاعر:

إن الملوك يحكمون على الورى ، وعلى الملوك يحكم العلماء.

كان العلماء في فترات عديدة من الأزمنة التي تحتكم فيها الظلمات، وتشتد فيها الأمور، هم القادة الذين يخرجون الناس من تلك الظلمات، وكثيرًا ما كان يوفق الأمراء والحكام للعمل بتوجيهاتهم، فيكتب الله عز وجل لهم سعادة الدارين، وحسن العاقبة في المآلين، ومن شاء أن يتحقق من هذا المعنى فليقرأ تاريخ الإسلام، ليقرأ حين دخل التتار بلاد المسلمين وفعلوا ما فعلوا، لقد ركلوا الخليفة في كيس حتى قتلوه رفساً،

هكذا فعلوا بالخليفة،وسفكت الدماء في بغداد وألقيت الجثث في النهر حتى احمرَّ لون الماء ولم يستفق المسلمون من تلك الشدة إلا حين قابل المسلمون مصطفين وراء علمائهم وأمرائهم حين قابلوا عدوهم على أرض الشام، فكتب الله سبحانه وتعالى الغلبة، ودحر العدو، والتاريخ يعيد نفسه.

مكانة العلماء فى الحاضر.. والمستقبل

عرف الناس في الماضي قدر العلم، ومكانة العلماء ودورهم، بدءاً من عامة الناس وانتهاء بخاصتهم من القادة والزعماء، كانت هذه هي القاعدة العامة، وإن لم تكن تخلو من حوادث متفرقة لا تمثل ظاهرة، إلا أن هذه المكانة العظيمة للعلماء التي أضاءت حياة المسلمين في أكثر عصورهم ازدهاراً ورقياً وقوة؛ أخذ ضوؤها في العصر الحاضر يخبو، وقدرها يضعف، بانزواء تأثير كثير من العلماء وضياع دورهم واختلاف الناس في نظرتهم إليهم اختلافاً كبيراً والخطير أن هذا الضعف يأخذ شكل الظاهرة العامة، وتقف وراءه أيد ماكرة تريد أن تطفئ نور هذا الدين من خلال تحطيم مكانة علمائه ومحو دورهم.

ضعف دور العلماء يؤدي إلى عواقب خطيرة، في حاضر الأمة ومستقبلها، خصوصاً مع تطور وسائل الاتصال وكثرة منافذ التأثير، التي

وضعت المجتمعات في بحر يموج بالتيارات والأفكار والعقائد المنحرفة والضالة، فبناء المجتمع المسلم، يعتمد اعتماداً كلياً على علماء الدين، وضعف مشاركتهم ودورهم يعني ضعف بناء هذا المجتمع وبناء أفراده، كما يعني هشاشة في الحماية المهمة لهذا المجتمع ضد عوامل الفساد والانحراف، ومكايد الإيقاع به في أوحال الثقافات المنحرفة والأفكار الغربية الضالة، ويعني أن التيارات الفاسدة والضالة سوف يزداد تأثيرها يوماً بعد يوم في المجتمع، مما يؤدي إلى محو هويته وضياع قوّته، كما يؤدي إلى تصدر الجهلاء وقليلي العلم، فتنشأ البدع وتكثر الخرافات ويظهر الغلو وتنفتح أبواب الفتن والخلاف والنزاع.

سبب هذا الضعف هو وجود تصورات منحرفة لعالم الدين، فقد تفاوتت نظرة الناس إلى علماء الدين على مر العصور، وتعددت أسباب تلك التصورات، إلا أن عصرنا هذا يتميز بأنه تجمعت فيه كل التصورات التي ينظر بها الناس إلى عالم الدين، التي نشأت في الماضي والحاضر، وما يهمنا بصورة كبيرة هو ما تجمع لدينا في مجتمعاتنا من تصورات نحو العلماء في العصر الحاضر، وما سيكون عليه الحال في المستقبل.

أولاً: التصورات الباطلة والنظرات المنحرفة للعلماء في العصر الحاضر:

1-نظرة الغلو والتقديس في العلماء:

وهي نظرة تتجاوز الحد الشرعي في تقديس الإمام أو العالم أو الشيخ، وأبرز من يقع فيها غلاة الصوفيين الذين تتميز نظرتهم لشيوخهم بالغلو الحاد، والتقديس المنكر، فالشيخ لديهم هو محور السلوك، ولكي ينتفع المريد ببركاته فيجب عندهم ألا يزن أفعال شيخه بالشرع، وإن ارتكب المنكرات وعطل الفرائض وقعد عن الصلوات، ولا بد للمريد أن يعتقد أن شيخه هو الغوث، وأنه يستقي علومه من اللوح المحفوظ، وكل خير سيق إليه في الدنيا والآخرة إنما هو من مدد الشيخ وبركته ، جاء في كتاب الوصايا لابن عربي: من اعترض فقد انطرد، وقال: ومن قال لشيخه: لِمَ؟ لا يفلح وقال القشيري في رسالته: من صحب شيخاً من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة، ثم إن الشيوخ قالوا: إن حقوق الأستاذين لا توبة منها ويقول أبو الحسن الشاذلي عن مكانة القطب:له التصرف العام، والحكم الشامل في جميع المملكة الإلهية، وله الأمر والنهي والرسول ليس له عموم الأمر والنهي إلا ما يسمعه من مرسله لا يزيد وراء ذلك شيئاً، فالخليفة الولي أوسع دائرة في الأمر والنهي والحكم من الرسول الذي ليس بخليفة، وله تحريك الجمادات وكل حي، وله الإمارة على كل شيء، ولا يصل إلى الخلق شيء كائناً ما كان إلا بحكم القطب.

أضف إلى ذلك ما تشيعه تعاليم الصوفية في أتباعها من تواكل وخنوع، ومن أعظم علماء الصوفية أثراً في ترسيخ الجمود العقلي والتواكل ابن عطاء الله السكندري، إذ كان تأثيره خطيراً للغاية منذ القرن الثامن إلى اليوم، إذ التزمت الطرق الصوفية، لا سيما الشاذلية، بأفكاره، وأسلوبه جد خطير لأن فيه بلاغة في التعبير، ولكنها بلاغة تشيع في المريدين نوعاً من التخدير، وتشل بما في عباراته من إيقاع سجعي ملكة النقد العقلي، ولا تدور كتاباته غالباً إلا حول هذا المعنى: التجرد عن الأسباب وإسقاط التدبير،وعلى عاتق روح كتاب ابن عطاء الله السكندري التنوير في إسقاط التدبير يقع ما شاع بين مريدي الطرق الصوفية من خضوع وخنوع وتعطل عن الكسب ودروشة وتبطل، والحق أحق أن يتبع، ولا قداسة في قول إلا رسول الله فيما بلغ عن ربه.

وإضافة إلى هذا الغلو في تقديس الشيخ لدى غلاة الصوفية نجد طامة أخرى تزيد الطين بلة، وهى نبذ العلوم الشرعية والاعتماد بصورة كبيرة على ما يسمونه العلم اللدني أو العلم عبر الإلهام في تكوين شخصية الشيخ عندهم، يقول أبو اليزيد البسطامي: ليس العالم الذي يحفظ من كتاب فإذا نسي ما حفظه صار جاهلاً، إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس، هذا هو العالم الرباني.

ولا تقتصر نظرة التقديس المفرط والغلو في منزلة الشيخ على تلك الاعتقادات الباطلة في حياته فقط بل بعد مماته أيضاً، فمؤلفات الطريقة الدسوقية الشاذلية مثلاً تقول إن النار محرمة على أتباع الدسوقي وعلى زوار قبره وها هم أولاء غلاة الصوفية يكفّرون المسلم الذي ينكر حضور مولد البدوي، إذ يذكر الشعراني أن من ينكر حضور مولد البدوي يُسلب الإيمان من قلبه.

وهذه النظرة تشبه إلى حد كبير نظرة النصارى واليهود لرجال الدين أو لعلماء الدين، فقد عقد رجال الكنيسة مجمعهم رقم 20 بعد دخول الرومان في النصرانية، واتفقوا فيه على جعل رجال الكنيسة معصومين منزهين عن الخطأ، وصار كلامهم بذلك شرعاً لا يقبل النقاش ، فكبتوا الفكر، وحجروا على العقول، وهو ما أدى في النهاية إلى الثورة على رجال الكنيسة وعزلهم عن الحياة، وهو مبدأ ظهور العلمانية، وقد كان شعار الثورة الفرنسية اشنقوا آخر إقطاعي بأمعاء آخر قسيس.

وعلى هذه الصورة المنحرفة لعالم الدين لدى الصوفية وغيرهم يتكئ العلمانيون في التنفير من علماء الإسلام، ومن عودتهم إلى مكانتهم في قيادة الأمة وأداء دورهم، وهم بذلك يخلطون الأمور ويضللون الناس، فليست هذه هي المكانة الحقيقية للعلماء في الكتاب والسنة، فعالم الدين مهما بلغ علمه لا يصل إلى مقام النبوة، ولا عصمة له من الخطأ، ويجوز

عليه السهو والنسيان، لذلك يؤخذ من قوله ويرد عليه، وعلمه مكتسب بالتعلم، والأخذ عن العلماء، والنظر والفكر والفهم والاجتهاد، لا بالوحي أو الإلهام كما يعتقد غلاة الصوفية في شيوخهم، وليس العالم مصدراً للتشريع، فمصدر التشريع هو الكتاب والسنة، وليس له سلطة إلهية كما يعتقد النصارى في رجال الكنيسة، أو صفات ربوبية كما يعتقد غلاة الصوفية في غوثهم وأقطابهم وأوتادهم ومع ذلك كله فقد رفع الإسلام مكانة علماء الدين، وأعلى منزلتهم، وزاد من فضلهم، وأوجب لهم الاحترام والتقدير والتبجيل، بلا إفراط ولا تفريط، والأدلة على ذلك والشواهد وأقوال العلماء كثيرة.

ولا شك أن تلك النظرة المنحرفة للإمام أو العالم أو الشيخ من أسباب تخلف وضعف الأمة الإسلامية، لأنها بعيدة كل البعد عن منهج الإسلام الصحيح، حيث صرفت كثيراً من الناس عن التأثر بعلماء الأمة السائرين على النهج القويم، القائمين بدورهم في بيان الدين الحق للناس، الذين ينمون في المسلم صفات التفكر والفهم والفقه، ويدفعون الأمة نحو الأخذ بأسباب القوة والتقدم، ويجاهدون أعداء الإسلام،خصوصاً أن هذا التأثير الصوفي امتد إلى عدد من الولاة والحكام، حيث كان بعض منهم يتبع الطرق الصوفية، لا سيما في العصر المملوكي والعثماني، وهكذا اتجهت طاقات فئات كثيرة من الناس لتدور كلها حول القبور والموالد وصناديق

النذور لذلك كان غلاة الصوفية دائماً يقفون في وجه تيارات التجديد والإصلاح، يحاربون أئمة العلم الذين يسعون لتطهير العقائد والعبادات والعقول من البدع والخرافات والجمود، وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية على سبيل المثال تعرض على أيديهم للأذى والسجن، حتى مات في السجن وأدى هذا التصور لعلماء الدين في كثير من بلدان العالم الإسلامي إلى فتنة كثير من الأجيال المعاصرة، التي حاولت الوصول إلى ركب التقدم فضلت وأخطأت الطريق، كأجيال قاسم أمين وطه حسين ومحمد أحمد خلف الله وغيرهم من دعاة التغريب، التي رأت أن اللحاق بركب التقدم لا يتماشى مع تلك التصورات، التي ظنوا خطأ أنها هي نفسها تصورات الإسلام الحقيقية، لا سيما مع تقصير كثير من العلماء في القيام بتصحيح تلك التصورات، وضعف صوت من كان ينادي بتصحيحها ويقوم بمقاومتها من علماء الصوفية المعتدلين وغيرهم وسط جو مليء بصخب غلاة الصوفية، ومع وجود تشابه كبير بين ما صنعه رجال الكنيسة وبين تصورات الصوفية في الشيخ، اعتقد هؤلاء خطأ أن مسيرة التقدم لن تكون إلا بتقليد الغرب في طرح الدين جانباً وعزل علماء الدين عن الحياة.

2-النظر إلى العلماء على أنهم عقبة في طريق التقدم:

وهذه النظرة لعلماء الدين،حدثت في فترات وأوقات قليلة عبر تاريخ دول الإسلام، لأن الأصل في ولاة المسلمين عبر عصورهم، ما عدا بعض الفترات، أنهم كانوا يقربون العلماء من مجالسهم، ويعتمدون عليهم في إرساء قواعد الدولة، ويجعلون لهم مكانة خاصة، إلا أنه في العصر الحديث، ومع بدء الاحتلال الصليبي المعاصر لكثير من بلدان العالم الإسلامي، صار الأصل فيه هو إبعاد العلماء عن مكانتهم الحقيقية، ودورهم المنوط بهم في إصلاح المجتمع وحمايته، وتصويرهم على أنهم عائق للتقدم.

وعلى هذا النهج الذي سنته سلطات الاحتلال الأجنبي من تهميش العلماء في بناء المجتمع، وإضعاف دورهم وتأثيرهم، سارت كثير من دول المسلمين بعد ذلك، فصارت تعمل على تهميش دور العلماء، والنظر إليهم كعائق من معوقات قيام الدولة الحديثة، والأخذ بأسباب التقدم، فكان لا بد من إزاحتهم عن مواطن التأثير وحصر دورهم في مهمات إدارية، وقد بلغ الأمر في بعض الدول حد التحذير من علماء بأسمائهم، والجهر بعداء الدولة لعائلات دينية وتسميتها للشعب بأسمائها ليشاركوا في عدائها بل أقدم أحد القادة على غلق جامعة من أعرق الجامعات التي يتخرج منها العلماء، وهي جامعة الزيتونة، التي لم يتجرأ الاحتلال الفرنسي نفسه على إغلاقها وإمعاناً في تهميش دور هذا الصرح العلمي

الذي يخرج العلماء وطلاب العلم، قام أحد المسؤولين بإجراء مسابقة سباحة بملابس شبه عارية لبعض طالبات الشريعة، وأعلن فيها أن الشريعة قد تخلصت من عقدتها! هذه أمثلة قليلة لبعض المحاولات التي تحدث في بعض البلاد المسلمة، التي تهدف كلها لعزل العلماء عن المجتمع، وترسيخ النظر إليهم كعقبة في طريق الانفتاح والتقدم.

والأسباب التي أدت إلى تكون هذه النظرة كثيرة، وهي نفسها أسباب أزمة الأمة الإسلامية المعاصرة والصراع الدائر فيها بين العلمانية والإسلام، فأبرز الفئات التي تتبنى هذا التصور الباطل في بلاد المسلمين، وتسعى جاهدة لنشر هذه الصورة وترسيخها في المجتمعات المسلمة، هي فئات العلمانيين والمغتربين، ويوظفون لذلك جهودهم وطاقاتهم ووسائلهم، من كتب وتصريحات وحوارات ومقالات، بحجة أن إفساح المجال للعلماء للمشاركة في بناء المجتمع سيؤدي إلى تطبيق الشريعة الإسلامية في النهاية، وتحول المجتمع إلى دولة دينية ثيوقراطية، وهذا من أشد ما يلبسون به على الناس، مع أنها حجة ساقطة؛ إذ كيف تكون هناك دولة توصف بأنها إسلامية ثم يقولون نحن لا نريد أن تكون هذه الدولة دولة دينية! يعني يريدون أن تكون دولة مسلمة ولكنها ليست دينية! وهذا كلام لا يقوله عاقل يفهم الإسلام، فدولة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه، ودولة خلفاء خلفائه وحكام المسلمين وولاتهم،

كانت على مر العصور دولة مسلمة دينية تحكم بدين الإسلام وتتخذ من الكتاب والسنة منهاجاً لحياتها، ولم يمنع ذلك من تكوين حضارة إسلامية عالمية كان لها الفضل الأعظم على بعث النهضة في العالم الغربي، حتى وقع الاستعمار الحديث ونحيت شريعة الإسلام، وما جاء الإسلام إلا لتكون دولته دولة دينية إسلامية لا دولة علمانية تفصل الدين عن الحياة وما يصفونه بالدولة الثيوقراطية أو الدولة الدينية بالمفهوم الغربي، لا ينطبق على دولة الإسلام، لا من قريب ولا من بعيد، وذلك لسبب بسيط وهو أن دولة الكنيسة، ليست دينية بل وضعية؛ لأن من حق رجل الدين عندهم أن يشرع من نفسه ويضع الأحكام بلا مناقشة من أحد، لذلك انقلب الغرب على دولة الكنيسة وصارت الدولة الدينية عندهم تعني تسلط رجال الدين بأهوائهم التي يفرضون على الناس قداستها، وهو ما يعني قهر إرادة الناس والحجر على عقولهم، وليس الأمر كذلك في الإسلام، فعند أهل السنة ليس عالم الدين أو الفقيه مصدراً للتشريع، فمصدر التشريع هو الكتاب والسنة، وعمل الفقيه أو عالم الدين هو استنباط الأحكام وبيانها للناس، كما أن كلام عالم الدين أو الفقيه عند أهل السنة قابل للمناقشة من مثله من أهل العلم والتخصص، يحتمل الخطأ والصواب، يؤخذ من قوله ويرد عليه.

وهذا هو تراث العلماء وكتب الفقه مليئة بالمناقشات والمحاورات والمناظرات بين العلماء، إضافة إلى ما فيها من فقه واجتهادات وأصول ومبادئ ومناهج، كانت سبباً في شحذ العقول عبر عصور الإسلام، وتخليصها من قيود الغلو والجمود، وكون للأمة تراثاً كان ولا يزال نبعاً فياضاً لا ينضب، ولا يُظن وجود مثله عند أمة من الأمم، ومصنفات علماء الدين الإسلامي عبر العصور تعد من أقوى معالم الحضارة والتقدم، وأبرز الأدلة والشواهد على مدى ما قام به علماء الدين من جهود أثرت الفكر الإنساني، هو ما سطروه من موسوعات، ومصنفات، ومعاجم، وبحوث، تدل على عبقرية حضارية فذة، سبقت حضارات الشرق والغرب، سواء من حيث الإبداع في التصنيف، أو التنوع في مناهج البحث والتأليف، أو من حيث قوة الفكر وسعة الأفق، أو من حيث بناء حضارة الأمة والسعي لمعالجة مشكلاتها وإصلاح أحوالهاً، فكيف يزعم أحد بعد ذلك أن علماء الدين يمثلون عقبة في طريق التقدم!

العلماء وفقه الواقع

فرقٌ كبير بين ثلاثةٍ يتحدَّثون في واقع أمة الإسلام، (والثلاثة على علم بالشريعة):

أحدهم: لا يريد فهم واقعِه الذي يعيشه، ومع ذلك يتكلم فيه وينظّر!.

وآخر: يحاول فهم الواقع، لكن الخطأ في فهمه ملازمٌ له؛ لقلة المعطيات لديه، ولضعف التصوُّرات عنده.

وثالث: يحاول فهمه فيُصِيب في أغلب تنظيراته أو كلها؛ لتوافر المعطيات الكاملة لديه، ولتصوره الصحيح للقضايا.

فأما الأول: فلا خير في كلامه، بل شرُّه مستطير، وإفساده أكثر من إصلاحه، ويسيء للإسلام ومنهجه القويم من حيث لا يدري، أو يدري! ولو سكت لقلَّ الخلاف وأما الثاني: ففي خيره دَخَن فأما خيره: فمحاولتُه الفهمَ وأما دخنه: فخطؤه الناتج عن عدم تصور صحيح، ولو سكت لقلَّ الخلاف أيضاً أما الثالث: فهو خيرهم وأفضلهم، وحقيقٌ به أن يتكلم، وحقيق بمن دونه أن يُنصِت له.

من متطلبات الداعية الناجح والمفتي والحاكم: معرفتَه بالواقع داخليًّا وخارجيًّا، معرفة دقيقة جداً؛ لكي يُصدِر حكماً صحيحاً؛ فالحكم على الشيء فرعٌ عن تصوُّره وهذا ما يُعرَف بفقه الواقع، أو فقه الأحوال المعاصرة، داخلياً وخارجياً، وما يجب على الشخص تجاه واقعه الذي يعيشه، كلٌّ بحسب طاقته وقدرته.

والله عز وجل يقول: (وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) ، واستبانة سبيل المجرمين متوقِّفة على فهم مخطَّطاتهم وأهدافهم،

والسبل التي يتَّخِذونها للوصول إلى تلك الأهداف والقرآن الكريم فصَّل كثيرًا في بيان مخططات أعداء الإسلام وسُبُل مواجهتهم، بما فيه غاية الكفاية لمن أنعم نظره، ودقَّ تأمله، وربط واقعه بوقائع مَن سبقه، وأنزَل الآيات على الواقع تشخيصاً وعلاجاً.

وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم العمليَّة تدلُّ على أنه كان واسع النظر، عميق الفهم لأحوال العالم المحيط به، فها هو صلى الله عليه وسلم في العام الخامس من البعثة، يأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، بعيداً عن الجزيرة العربية بكاملها، بما فيها المدينة، وبعيداً عن الشام ودولتَي فارس والروم؛ وذلك لأن بالحبشة ملكاً لا يُظلَم عنده أحدٌ، ولأن ثمة عَلاقة قرب بين المسلمين والنصارى، قال تعالى: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها: (ألم تَرَي أن قومك لَمَّا بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟)، فقلت: يا رسول الله، ألا تردُّها على قواعد إبراهيم؟ قال: (لولا حِدْثانُ قومِك بالكفر، لفعلتُ).

فمراعاة النبي صلى الله عليه وسلم لواقع قومه منعَتْه من هدم الكعبة وبنائها على قواعد إبراهيم.

وحكى لنا القرآن الكريم نتيجة حرب فارس والروم (وهما دولتان كافرتان)، وموقف المسلمين منها؛ حيث تابعوها واهتموا بها، وحزنوا أولاً لهزيمة الروم، ثم وعَدَهم الله بنصر الروم على فارس، ففرحوا بهذا النصر الذي هو مِن الله عز وجل، قال تعالى: (الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)، وهذا من أدلِّ الدلائل على اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بواقع العالم المحيط بهم.

وكان عمر رضي الله عنه يقول: لست بالخِبِّ، والخبّ لا يخدعني ، وذلك لا يكون إلا بفهمه لمن حوله أفراداً ومجتمعات، وكل السلف كانوا على هذا المنوال، حتى في الفتوى، وفتاوى ابن عباس رضي الله عنه شاهدةٌ على ذلك؛ فحينما جاءه قاتل امرأة وسأله: ألقاتلِ المؤمن توبةٌ؟ قال: نعم، وأرشده إلى برِّ أمه، وجاءه آخر وسأل السؤال نفسه، وقد رأى ابن عباس الشرَّ في عينَيْه، فأجابه بأنه لا توبة له، والوقائع كثيرةٌ تُثبت أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتعاملون مع واقعهم الذي يعيشونه، على مستوى الفرد والجماعة.

وفقه المقاصد أصلًا قائمٌ على تحقيق مقاصد الشريعة وَفْق متطلبات العصر ووقائع الأحوال، وفي ذلك دليلٌ على عظمة التشريع الإسلامي، وأنه صالح للتطبيق في كل زمان ومكان، بل لا يصلُح الزمانُ والمكان إلا بتطبيقه وإلا فبالله كيف يكون صالحًا لكل زمان ومكان، وهو لا يقدر على التعامل مع الواقع تعاملاً مَرناً، يصل مِن خلاله إلى مراد الله تعالى مِن عباده؟!

إن الإسلام نظامٌ للإنسان، نظام واقعيٌّ إيجابي يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه، ويتوافق مع واقعه وضروراته، ويتوافق مع ملابسات حياته المتغيِّرة في شتى البقاع وشتى الأزمان والأحوال، إنه نظامٌ واقعي إيجابي يلتقط الإنسانَ من واقعه الذي هو فيه، وموقفه الذي هو عليه؛ ليرتفع به في المرتقى الصاعد، إلى القمة السامقة، في غير إنكارٍ لفطرته أو تنكُّرٍ، وفي غير إغفال لواقعه أو إهمال، وفي غير عنف في دفعه أو اعتساف، إنه نظام لا يقوم على الحذلقة الجوفاء، ولا على التظرف المائع، ولا على المثالية الفارغة، ولا على الأمنيات الحالمة، التي تصطدم بفطرة الإنسان وواقعه وملابسات حياته.

وما أجمل ما قاله ابن القيم رحمه الله في هذا المضمار وهو من أفضل ما قيل : ولا يتمكَّن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحُكم بالحقِّ إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فَهْم الواقع ، واستنباط علم حقيقةِ ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات؛ حتى يحيط بها علماً.

والنوع الثاني: فَهْم الواجب في الواقع، وهو فهم حُكم الله الذي حكَم به في كتابه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر.

وقال رحمه الله: الفقيه مَن يُطبِّق بين الواجب والواقع، فلكلِّ زمان حكمٌ، والناس بزمانهم أشبهُ منهم بآبائهم.

وما أفقهَ شيخَ الإسلام ابن تيمية ؛ حيث حكى عنه الإمام ابنُ القيم رحمه الله فقال: وسمِعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه، ونوَّر ضريحه يقول: مررتُ أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكَرَ عليهم مَن كان معي، فأنكرتُ عليه، وقلت له: إنما حرَّم الله الخمر؛ لأنها تصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدُّهم الخمرُ عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال، فدَعْهم، وهذا هو الفرق بين الواقعيينَ وما أقلَّهم، والسطحيين وما أكثرَهم.

ويُوضِّح ابن القيم رحمه الله هذا المعنى، فيقول: فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج، كان إنكارُك عليهم مِن عدم الفقه والبصيرة، إلا إذا نقلتَهم منه إلى ما هو أحبُّ إلى الله ورسوله صلى الله

عليه وسلم، كرَمْي النُّشَّاب، وسباق الخيل ونحو ذلك، وإذا رأيت الفسَّاق قد اجتمعوا على لهوٍ ولعب، أو سماع مُكاءٍ وتصدية، فإنْ نقلتَهم عنه إلى طاعة الله، فهو المراد، وإلا كان تركهم على ذلك خيراً من أن تفرغهم لِما هو أعظم من ذلك، فكان ما هم فيه شاغلاً لهم عن ذلك، وكما إذا كان الرجل مشتغلاً بكتب المجون ونحوها، وخفتَ مِن نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسِّحر، فدَعْه وكتبه الأولى، وهذا باب واسع.

وقال رحمه الله: شرَعَ النبي صلى الله عليه وسلم لأمتِه إيجابَ إنكار المنكر؛ ليحصل بإنكاره مِن المعروف ما يحبُّه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكَرُ منه، وأبغَضُ إلى الله ورسوله، فإنه لا يسوغ إنكارُه، وإن كان الله يُبغِضه ويمقُتُ أهله.

ولا يتمكن المسلم من ذلك إلا إذا كان فقيهًا بواقعه، بصيرًا بما يجب عليه فيه ولا يَظُنَنَّ أحدٌ أن في ذلك تمييعاً لأصول الشريعة وتضييعاً لأحكامها؛ لكونه يتعامل مع واقع متغير؛ ففي الإسلام ثوابتُ ومتغيرات، وكلٌّ قد حدَّده الشرع الحنيف، والأحكامُ الناتجة عن فقه الواقع متعلّقة بالمتغيرات لا بالثوابت، ثم إن هذا ليس متروكاً لأي أحد يتصرف فيه كيفما شاء، بل هذا موكول لعلماء الشريعة، وَفْق أصول ومناهجَ مأخوذة من منطوق القرآن والسُّنة، ومفهومهما الصحيح.

قال الألباني رحمه الله:لا يجوز أن يُنكِر أحد من طلاب العلم ضرورةَ هذا الفقه بالواقع؛ لأنه لا يمكن الوصول إلى تحقيق الضالَّة المنشودة بإجماع المسلمين، ألا وهي التخلص من الاستعمار الكافر للبلاد الإسلامية، أو على الأقل بعضها، إلا بأن نعرف ما يتآمرون به، أو ما يجتمعون عليه؛ لنحذره ونُحذِّر منه؛ حتى لا يستمر استعمارهم واستعبادهم للعالم الإسلامي.

فبالله إن لم تكن عارفًا بالواقع معرفةً كافية، وليس عندك تصوُّرٌ كامل وصحيح لقضايا الأمة، فإياك ثم إياك والحديثَ فيه من الناحية الشرعية؛ لئلا تزيد الطينَ بلَّةً، والمسلمين فُرقة والسكوت في حقك شرفٌ لك، وحفظ لمكانتك، ونزعٌ لفتيل الاختلاف والفُرقة، (ولو سكَتَ مَن لا يدري، لاستراح وأراح، وقلَّ الخطأ، وكثُر الصواب)؛ كما قال الحافظ المزي رحمه الله، وقد أحسَنَ مَن انتهى إلى ما عَلِم وميل بعض الناس لعدم معرفة واقعه وفهمه فهماً جيداً نابعٌ غالباً من خوفه من تغيير قناعاته التي تربَّى عليها، وقد تكون صحيحة في زمنٍ ما، خاطئةً في زمن آخر، فلكلِّ زمن حُكمُه وهذا الخوف: إما أن يكون خوفًا من إعمالِ فكره وعقله الذي وهبه الله إياه، والحال أنه قد عوَّده الركود والبلادة أو خوفاً من مخالفةِ شيخ أو طائفة، يحبُّهم ويُحِبُّونه، فيتغيَّرون عليه! أو ربما لاعتقادِه أنهم مصِيبون دائماً، أو خوفاً من لوم الجهلاء أنه متلوِّن

ومتغير بحسب الوقائع، (وفي الحقيقة: هو يساير الأحداث والمستجدَّات) ، فيكتفي بقناعاته السابقة، مُعرضًا عما سواها!.

وهذا حريٌّ به أن يكون حِلْسَ بيتِه، فلا يقتحم على الناس عقولَهم فيسرقها؛ لئلا يزيد المريض عِلة، فكفى بالناس جهلاً وفُرقة واختلافاً ما هم فيه والعاقل المنصِف: مَن لا يضُرُّه تغييرُ قناعاته التي عاش عليها رَدَحاً من الزمن، إذا تبيَّن له فسادُها بعد صلاحها؛ لتغيُّر الواقع والأحداث ، والشواهدُ على ذلك مِن فعل السلف كثيرة؛ فهذا الإمام محمد بن إدريس الشافعيُّ رحمه الله له مذهبٌ قديم وجديد.

والعاقل: لا يضره مخالفةُ شخص كائناً مَن كان؛ لأنه يعلم أن العصمة ماتت بموت النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ولا يضره كلام الناس فيه، ولا لوم الجهلاء، والرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل.

واقع حقوق العلماء:

بدأت مكانة العلماء تهبط في الأمة عندما ضعف دور أهل السنة والجماعة في القرون الأخيرة وبرز علماء التصوف كموجهين وقادة للأمة، حيث أظهر الصوفيون نموذجاً سلبياً للعلماء يقوم على الخرافة وادعاء بعض حقوق الألوهية، وترسيخ الإعتزال، وترك الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاتيان بالمخاريق والغرائب باسم

الكرامات، وبهذا أصبحت الصورة النمطية للعلماء أنهم مخرفون وسذج وسطحيون وغيرها من الأوصاف الدنيئة.

ثم جاء الاستعمار وأذنابه وزاد في ترسيخ هذه الصورة النمطية، ومنه مشروع دانلوب لإقصاء علماء الأزهر وتربية المجتمع على احتقارهم من خلال تقليل رواتبهم وإظهارهم بالتحف التاريخّية في هيئتهم وملابسهم وأعمالهم، حيث أصبح المجتمع لا يعرف من أعمالهم إلا قراءة القرآن في المآتم ونحوها.

وعمل أذناب الاستعمار من العلمانيين والليبراليين على إقصاء دور العلماء من المجتمع والجرأة عليهم واحتقارهم وتفكيك وحدتهم، وإثارة الخلافات بينهم، ولا تزال هذه المرحلة مستمرة إلى اليوم والعجيب حقاً أنه مع حديث الإعلام في كل صباح ومساء عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الطفل، بل حاول الليبراليون أن يظهروا الجانب الإنساني عندهم بالحديث عن حقوق الحيوان إلا أنهم لا يتكلمون عن حقوق العلماء بل يحطمونها كلما سنحت لهم فرصة.

ومن الملاحظ أن هذا الهجوم على حقوق العلماء يتركز على علماء أهل السنة والجماعة، فهم لا يتهجمون على علماء الشيعة والصوفية والدروز وغيرهم ويرون أن لهم حقاً في ممارسة العمل السياسي

والاجتماعي ولا يتكلمون عن خرافاتهم ودعوى العصمة فلا يسمون ذلك احتكاراً للحقيقة وإقصاء للآخر.

وقد تعمدتُ تتبع كلام العلمانيين الشيعة فلم أرهم يتكلمون على علمائهم مع كثرة الخرافات المنافية للعقل في الوقت الذي يتهجمون على علماء السنة ويساعدهم العلمانيون من أصول سنية، وهذا كله يؤكد أن المستهدف بالانتهاك والمحاربة هو (حقوق علماء أهل السنة والجماعة)

ولست بحاجة إلى تتبع الانتهاكات فهي ماثلة للعيان، وهي تدل على حرب مقصودة ضد العلماء لتهميش دورهم، وإسقاط هيبتهم من النفوس وأصبحت الحرب مكشوفة إلى درجة استغلال من يغرد خارج السرب من المنتسبين للعلم الشرعي ومحاولة إبرازه كقيادة علمية متسامحة ويدخل في مضايقة العلماء وانتهاك حقوقهم: منعهم من الدعوة والتدريس، وطلب التصريح لدروسهم من إداريين لا يعرفون المؤهل من غيره ولهذا قد يقوم موظف بسيط بشطب أسماء بعض العلماء من الإذن لهم بالتدريس والمحاضرات ولا أحد يستطيع أن يوقف هذا الأمر، وهذه مهزلة تختصر الضرر العظيم اللاحق بالعلماء في المجتمع.

بيان أحوال الناس في تغيير الواقع السياسي المعاصر لبلدانهم:

يمكن تقسيم أحوال الناس في هذا المقام ثلاثة أقسام:

1 – اتجاه يتسم بأسلوب مواجهة المحتل الخارجي سواء كان ذلك بالجهاد الشرعي أو المقاومة القومية، وهذا المسلك مقبول إجمالاً لدى الأمم لأحقية الشعوب في الدفاع عن نفسها وأرضها ومالها.

وقد حفل التاريخ الإسلامي بنماذج للتغيير الشرعي بمناهضة المحتل كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية والعز بن عبد السلام في صد التتار المنتسبين إلى الإسلام، وكذلك المنذر بن سعيد البلوطي وإخوانه من علماء الأندلس في حرب الصليبيين، ولما أخذت الفرنجة بيت المقدس قام العلماء بالتحريض على الجهاد فكان ممن خرج إلى الأمصار ابن عقيل رحمه الله وغير واحد من أعيان الفقهاء، وفي العصر الحديث لمعت أسماء في سماء ميادين الجهاد من أبرزها الإمام محمد بن سعود والإمام محمد بن عبدالوهاب رحمهما الله في أرض الجزيرة، ومن بعدهما علماء الدعوة في ديار نجد، وفي أفريقيا ظهر اسم عبدالحميد بن باديس فى الجزائر مؤسس جمعية علماء المسلمين التي كان لها أثرها في الوقوف في وجه المحتل الفرنسي، والشيخ عز الدين القسام في الأرض المباركة، وغيرهم من منتسبي العلم في السودان ونيجيريا وأقصى أفريقيا، فاستحق صنيع أولئك أن يخلد ذكرهم، وقد قيل:

إن الزعامة والطريق مخوفة غير الزعامة والطريق أمان

2 – اتجاه التغيير القسري، وله عدة أساليب:

أ – أسلوب الانقلابات من أبناء الشعب على الحكام والأنظمة المستبدّة، وقد يقود هذا لفرض أنواع من النظم المتباينة، فقد جلب ذلك الديمقراطية الفرنسة إثر ثورتها المشهورة في الغرب، وللشيوعية الماركسية إثر ثورتها في الشرق.

ب – أسلوب الاستعانة بعدو خارجي للبلد لتغيير النظم القائمة كما حصل في العراق وأفغانستان، وهذا الأسلوب مرفوض في الجملة فقد استقر قول أهل السنة على منع الخروج على الحاكم المسلم بالقوة ولو كان فاسقاً إن لم يكن خلعه بواسطة أهل الحل والعقد لما يترتب على ذلك من مفاسد تربو على المصالح كما دلت على ذلك النصوص الشرعية والشواهد التاريخية والواقعية.

وأما ما يسمى بالشرعية الدولية فهي وإن رفضت هذا المسلك نظرياً إلا أن دولها الكبرى تمارسه بأبشع صورة وسط تواطؤ عالمي مشين، والواقع المعاصر أكبر برهان.

3 – اتجاه التغيير الإصلاحي وهو أوسع أبواب التغيير السياسي المتاح وللناس فيه أساليب متعددة، ومن أنسبها في عصرنا الحاضر:

أسلوب العمل الشعبي المتجه إلى المجتمع أو الجمهور وهو من أبرز اتجاهات الإصلاح المعاصرة كعمل مؤسسات المجتمع المدني المستقلة التربوية والدعوية ونحوها، مع أهمية مراعاة البعد عن الفوضى، أو تقديم المفاسد على المصالح.

ومما تقدم يتبين أنّ لتنوّع الظروف والمجتمع الذي يقوم فيه شأن الإصلاح أثراً في اختلاف الأولويات والوسائل وهو في الجملة من اختلاف التنوع لا التعارض مما يوجب على أهل الإصلاح التعاذر عند الاختلاف واجتناب سوء الظن والتغليظ في النقد.

بل إن اختلاف الأسلوب والوسيلة قد يكون سائغاً لاختلاف التكوين النفسي أو العلمي أو الخَلْقي وإن كان ذلك في مجتمع واحد والمعيار لذلك الاختلاف هو العلم بالشريعة المقرون بفقه الواقع كما قال شيخ الإسلام: والواجب أن يعتبر في أمور الجهاد برأي أهل الدين الصحيح الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا فأما أهل الدنيا الذين يغلب عليهم النظر في ظاهر الدين فلا يؤخذ برأيهم ولا برأي أهل الدين الذين لا خبرة لهم في الدنيا [1] .

1-الفتاوى الكبرى537/5

ومن مجمل العرض الآنف يجد أهل العلم أمامهم مسالك مختلفة للإصلاح ربما كان لكثير منهم دوراً فيها، ويبقى التعويل في زيادة فاعلية أثرهم على مجريات الأحداث على ما مضت الإشارة إليه من اتفاق أصحاب المسالك المختلفة على مشاريع مشتركة تتضافرعليها جموعهم فعلى سبيل المثال قد تجد بعض حركات المقاومة أو الجهاد الإسلامي لها أثر ملموس في إنهاك المحتل، لكن كثيراً منها ربما افتقر إلى رؤية سياسية واضحة، أو برنامج سياسي مصاحب لعمل المقاومة، وهذا الخلل قد يستغله غيرهم فيقطف ثمرتهم، كما قطف الشيوعيون ثمار الثورة على القيصرية في روسيا، والعلمانيون ثمار الجهاد في الجزائر ولعل مما يكفل نوعاً من الأمان لحركات المقاومة وجود رؤية سياسية واضحة لها، أو على الأقل وجود تعاون مشترك واتفاق على مشاريع سياسية مع القوى التي ارتضت مسالك أخرى في التغيير.

ومما يحسن التنبيه إليه أنه في بعض الأحوال نظراً لملابسات واقع ما، ليس بالضرورة أن يكون دور العلماء أكثر من التوجيه والإرشاد والتقويم وفقاً لأحكام الشريعة وقواعدها مع السعي إلى جمع الكلمة مهما أمكن من أجل تكامل الجهود لإذ أنه لابد لجمهورهم من مباشرة العمل وإلاّ سيكون ثمَّ نوع قصور في التصور فضلاً عن الإصلاح وقد قيل:

لا يعرف الشوقَ إلاّ من يكابدُه ولا الصبابَة إلاّ من يُعانِيها